الفكر العلمي عند ياقوت الحموي

في (معجم البلدان)

عندما بدأت بقراءة هذه المجلدات الخمس الكبيرة من معجم البلدان لياقوت لم يكن يخطر في بالي أني سأجد عالماً حقيقياً يحمل كل ما يتمتع به العالم الحقيقي من مزايا : الموضوعية ، فلا علم إلا بالضروري ، والعموميـة ، فلا علم إلا بالكلي ، والتبسيط فلا علم إلا برد المركب إلى البسيط . كنت أبحث بالفعل عن شعر جميل يرد خلال حديثه عن الأماكن والبلاد ، وكنت أبحث بالفعل عن حوادث وحكايات ترِد عن الديار والسكان ، وكنت أبحث عن أسماء بعض المواقع والأودية والبقاع التي نحفظها في أدبنا العربي حفظاً ، ولا نعرف محلها على وجه التحديد ، تلك البقاع التي نشعر ونحن نردّد أسماءها أنها جزء من قلوبنا وعقولنا وأجسادنا ، نحن كنا منها : كنا نعيش فيها : يسيل العقيق بالماء فنخرج لنستمتع بمنظره ، ويسيل عرفات بالناس فنخرج لنحج مع الحجّاج ، وتهبّ صبا نجد ففتح لها صدورنا ونسائلها : متى هبّت على أحبابنا ؟ فقد زادنا مَسراها وجداً على وجد ...

لذلك كلّه بدأتُ في قراءة هذه المجلدات الخمس الكبيرة ، ولم أكد أشير في الصفحات الأولى من المجلدة الأولى حتى بدا لي وجه جديد ليس هو وجه أديب يعرف ما ورد من الشعر حول الأودية والشعاب ، وليس هو وجه رحّالة يحفظ أسماء الأمكنة والبقاع ، وليس هو وجه راوية يحدثنا عما جرى في تلك الأماكن من عجائب وحكايات . برز لي وجه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عالم محقق يحاول في كل إخلاص ونزاهة أن يعرض موضوع علمه ، وأن يستبعد كل ما يراه بعيداً عن الحق والعقل ، وأن يتحقق بنفسه مما يرويه الناس من أعاجيب ، وأن يزور ما لا يطمئن قلبه إلى سلامة ما يشاع عنه ، ومضيت في قراءة الكتاب يدفعني إلى ذلك دافع آخر غير الدوافع الأولى ، ولم أكد أنتقل من فصل إلى فصل ومن باب إلى باب ، حتى اختفت أو كادت تلك الوجوه على ما فيها من حلاوة وطلاوة ، وبرز وجه العالم في كتاب ياقوت وقلت : لعمري انه يستحق بحثاً كبيراً مفصّلاً .

وهكذا نحن أبناء الأمة العربية لا نزال نتخيل تراثنا القديم مجموعة من الحكايات والأساطير ، وإذا أحسنا الظن قلنا : إنه مجموعة من الشعر والأدب ، فإذا قرأنا هذا التراث ، وإذا صبرنا أنفسنا على قراءة كتاب كامل لا على الاكتفاء بقراءة مختارات منه ، بدت لنا كنوز من المعرفة لم نكن نتوقعها ، وانفتحت أمامنا أبواب من العلم لم تكن متفتحة ، وإذا نحن أمام حقيقة لا يدفعها إلا من يجهل تراثنا ، ولا يردها إلا من لم يعش بين كتبنا القديمة الصفر ، وهذه الحقيقة هي أننا خلفنا وراءنا تراثاً ضخماً لا في الشعر وحده ، ولا في الأدب وحده ، ولا في التاريخ وحده ، بل في كل درب من دروب المعرفة ، وكل لون من ألوان العلم ، ومن هذه الدروب والألوان علم الجغرافيا على أفضل ما يمكن أن يكون عليه العلم في تلك القرون ، وفي أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع من الهجرة على وجه التحديد .

ولكن ! من ياقوت هذا الذي نتحدث عن تفكيره العلمي ونترك ما نعرف عنه من معرفة بالأدب ورواية للشعر ؟ وما كتابه معجم البلدان الذي نختاره اليوم للبحث ؟ وندع معجميه الآخرين الكبيرين : معجم الأدباء ومعجم الشعراء ؟

إليكم ما جاء في الأعلام (الجزء التاسع ص : ١٥٧)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ياقوت الحموي (٥٧٤ — ٦٢٦ هـ / ١١٧٨ — ١٢٢٩)

« ياقوت الحموي بن عبد الله الرومي الحموي أبو عبد الله شهاب الدين : مؤرخ ثقة ، من أئمة الجغرافيين ، ومن العلماء باللغة والأدب ، أصله من الروم ، أسر من بلاده صغيراً ، وابتاعه ببغداد تاجر اسمه عسكر بن ابراهيم الحموي فرباه وعلمه وشغله بالأسفار في متاجره ثم أعتقه (سنة ٥٩٦ هـ) وأبعده فعاش من نسخ الكتب بالأجرة ، وعطف عليه مولاه بعد ذلك ، فأعطاه شيئاً من المال استخدمه في تجارته ، فاستمر إلى أن توفي مولاه فاستقلّ بعمله ، ورحل رحلة واسعة انتهى بها إلى مرو (بخراسان) وأقام يتّجر ، ثم انتقل إلى خوارزم ، وبينما هو فيها خرج التتر سنة (٦١٦) فانهزم بنفسه تاركاً ما يملك ونزل الموصل وقد أعوزه القوت ، ثم رحل إلى حلب وأقام في خان بظاهرها إلى أن توفي . أما نسبته فأرجح أنها انتقلت إليه من مولاه عسكر الحموي . من كتبه « معجم البلدان ـ ط » و « إرشاد الأديب ـ ط » ويعرف بمعجم الأدباء وفي النسخة المطبوعة نقص استدرك بتراجم ملفقة دست فيه ، و « المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ـ ط » و « المقتضب من كتاب جمهرة النسب ـ خ » و « المبدأ والمآل » في التاريخ ، وكتاب « الدول » و « أخبار المتنبي » و « معجم الشعراء (١) . »

وجاء في معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (١٣ : ١٧٨) ، وفيه تفصيل أكبر لمصادر الدراسة عن ياقوت :

---

(١) بعض الكتب التي ترجمت له :
النجوم الزاهرة ٥ : ٢٨٣ وفي هدية العارفين ٢ : ٥١٢ « له رسالة في الخط » قلت : لعل الرسالة من تأليف ياقوت المستعصمي الآتية ترجمته لا كما يقول صاحب مفتاح السعادة ١ : ٨٧ .
وفيات الأعيان ٢ : ٢٠٨ ومرآة الجنان ٤ : ٤٩ وإرشاد الأريب ٧ : ٢٦٧ والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٨٣ وفيات الأعيان ٢ : ٢١٠ والإعلام لابن قاضي شهبة ـ خ . والتكملة لوفيات النقلة ـ خ ـ الجزء الثالث والأربعون ومجلة المقتبس ١ : ٤٨٩ وآداب اللغة ٣ : ٨٨ والرحّالة المسلمون ١٠٢ ومرآة الجنان ٤ : ٥٩ — ٦٣ وفيه بعد ذكر وفاته بحلب وانه وقف كتبه « ولما تميز سمي نفسه يعقوب » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ياقوت الحموي (٥٧٤ ـ ٦٢٦ هـ / ١١٧٨ ـ ١٢٢٩ م)

ياقوت بن عبد الله الرومي ، الحموي (أبو عبد الله ، شهاب الدين) مؤرخ ، أديب ، شاعر ، ناثر ، لغوي ، نحوي ، عالم بتقويم البلدان ، ولد ببلاد الروم ، وأعتقه مولاه عسكر الحموي فنسخ بالأجرة ، ثم إن مولاه أعطاه شيئاً من المال وسفره إلى كيش ، ولما كان مولاه قد مات ، فحصل شيئاً مما كان في يده وأعطاه أولاد مولاه وزوجته وأرضاهم به وبقي بيده بقية جعلها رأس ماله وسافر بها ، وجعل بعض تجارته كتباً وتوجه إلى دمشق ، ووصل إلى حلب ، ثم إلى الموصل ، فإلى إربل ، وسلك منها إلى خراسان ، وخوارزم ، ثم عاد إلى الموصل ، وانتقل إلى سنجار ، وارتحل إلى حلب ، وأقام بظاهرها في الخان ، وأوقف كتبه في مسجد الزيدي بدرب دينار ببغداد ، وتوفي في الخان بظاهر مدينة حلب في / ٢٠ / رمضان . من تصانيفه : إرشاد الأريب في معرفة الأديب ، معجم البلدان ، المشترك وضعاً والمختلف صقعاً ، المقتضب من كتاب جمهرة النسب ، أخبار المتنبي ، وله شعر .

(خ) الذهبي : سير النبلاء ١٣ : ١٩٧ ، ١٩٨ ، فهرس المؤلفين بالظاهرية .

(ط) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٨ : ١٨٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٥ : ١٢١ ، ١٢٢ ، اليافعي : مرآة الجنان ٤ : ٥٩ — ٦٣ ، مقدمة معاجم الأدباء لياقوت ١ : ١٨ — ٤٤ ، حاجي خليفة : كشف الظنون ٦٤ ، ٣٦٣ ، ١٠٩٦ ، ١٤١٨ ، ١٥٨٠ ، ١٦٩١ ، ١٧٣٣ ، ١٧٣٤ ، ١٧٣٥ ، ١٧٩٣ ، فهرست الخديوية ٥ : ١٥٦ كوبرلي زاده محمـــد باشا كتبخانه سنده ٧٥ ، البغدادي : هدية العارفين ٢ : ٥١٣ ، عباس العزاوي : التعريف بالمؤرخين ١ : ١٠ — ١٤ ، كتبخانة عاشر أفندي ٧٢ ، محمد كرد علي : كنوز الأجداد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٣١٩ — ٣٢٤ ، أعلام الثقافة العربية ١ : ١١٣ — ١٤٤ مقدمة المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ، ومقدمة معجم البلدان

Bieu : Arabic manuscripts 469 — 471 , De Slane : Catalogue des manuscrits Arabes 391 , Blachére : Encyclopedie de l'Islam IV : 1216 — 1217 Ahlwardi : de verzeichniss der arabichen handschriften IX : 335 .

(م) علي أدهم : الثقافة بالقاهرة س ١٢ ، ع ٦٤٢ ، ص ٧ — ١٠ ، عبد الوهاب عزام ، الرسالة بالقاهرة ٤ : ٢٠٩٧ — ٢٠٩٩ ، ٢١٣٦ ، ٢١٣٧ ، ٥ : ٣٥ - ٣٨ ، ٧٦ — ٧٨ — ١١٦ — ١١٨ ، محمد كرد علي : الرسالة ٥ : ١٦٤٦ ، ١٦٤٧ ، عبد الله مخلص : الرسالة ١١ : ٥٨ ، إسعاف النشاشيبي : الرسالة ١٣ : ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٦٦٤ — ٦٦٦ ، ١٣ : ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٩٤ ، ١١٩٦ ، ١٢٢١ — ١٢٢٣ ، ١٢٥٣ — ١٢٥٥ ، ١٣٠٥ - ١٣٠٩ ، ١٣٣٩ — ١٣٤١ ، ١٣٦١ — ١٣٦٤ ، ١٤١٧ — ١٤٢٠ ، ١٤ : ٤٠ — ٤٣ ، ٧٠ — ٧٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٢٤ — ١٢٦ ، ١٥١ — ١٥٣ ، ١٧٩ — ١٨١ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، لغة العرب ٩ : ٦٣٠ - ٦٣٣ ، ٦٩٩ — ٧٠٥ ، ٧٧٤ — ٧٧٨ ، المقتبس ١ : ٤٨٩ — ٤٩٢ ، ٣ : ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤ : ١٩١ ، ١٩٢ ، ٨ : ١٣١ ، ١٣٢ ، ٢٦٠ — ٢٦٨ ، ٣٦٤ — ٣٧٣ ، ٤٣٣ — ٤٤٣ .

لا نريد أن نفصل في حياة ياقوت ، فليس بحثنا عن حياته ، ولكننا نريد أن ننتقل إلى معجم البلدان وإلى تفكيره العلمي في هذا المعجم .

يقع معجم البلدان في خمس مجلدات كبار ، في المجلدة الأولى مقدّمة يتحدث فيها المؤلف عن ضرورة الجغرافيا ويدافع عنها دفاعاً دقيقاً ، فالناس سواسية في الافتقار إليها ، الفقهاء لأنها مواقيت للحج والزيارة ، والمؤرخون لأنها مواطن الغزوات والفتوح ، والماليون للفيء والجزية والخراج ، والأطباء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لمعرفة أمزجة البلدان وطبائع الهواء ، والمنجمون للاطلاع على مطالع النجوم وأنوائها ، وأهل الأدب لأنها من ضوابط اللغة ولوازمها ، وشواهد النحو ودعائمه ، وكم من عالم بالأدب صنّف فأحسن التصنيف ، فإذا انتقل إلى الأماكن خلط وتخبط ، كما فعل شارح مقامات الحريري ، وياقوت في كل ما ذكر من حاجة الناس إلى هذا العلم مؤمن به ، يدافع عنه ويدعو إليه ، وإذا غفل الأولون عن هذه الفضيلة النبيلة ولم يعنوا بالجغرافية عناية كافية فليس في ذلك ما يضرها ، وياقوت يردّد قول الشاعر :

كم ترك الأول للآخر

وهو يقول : « ما أحسن ما قال أبو عثمان : ـ وهو الجاحظ ـ ليس على العلم أضرّ من قولهم : لم يترك الأول للآخر شيئاً ، فإنه يفتر الهمـــة ويضعف المنة . » (١)

ثم يذكر ياقوت بعض من ألف في الجغرافيا من المسلمين فلا يبخس حق أصحاب الحق ، بل يدلّ على ما في كتبهم من مزايا ونواقص ، ويقول بالحرف الواحد وهو يذكر كتاب أبي الفتح نصر بن عبد الرحمن الاسكندري في ما ائتلف واختلف من أسماء البقاع « أما أنا فكل ما نقلته من كتاب نصر فقد نسبته إليه وأحلته عليه ، ولم أُضِعْ نصَبه ، ولا أخملت ذكره وتعبه ، والله يثيبه ويرحمه . » (٢)

هكذا نجد أمانة العالم ، يذكر جهود من سبقوه ولا يبخس حقهم عليه ، وينقل منهم في كتابه ثم يُشير إلى أسماء من نقل عنهم ويذكر الأماكن التي اعتمد فيها عليهم ، وقل أن تجد في كتابه صفحة ليس فيها ردّ للمعلومات إلى أصحابها وللروايات إلى كتبها ومصادرها ، ثم إنه رغم مرور السنين بعد

---

(١) معجم البلدان ١ : ١١ .
(٢) المصدر نفسه ١ : ١١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السنين على جهده في تأليف هذا الكتاب ، لا يرضى عنه ولا يجده الغاية في الإتقان ، ولولا خوفه من الموت أن يدهمه قبل أن يتمه لقضى في البحث والتنقيب أكثر مما قضى .

استمع إليه يندب شبابه ويذكر جهوده في تأليف الكتاب :

« ولما تطاولت في جمع هذا الكتاب الأعوام ، وترادفت في تحصيل فوائده الشهور والأيام ، ولم أنته منه إلى غاية أرضاها وأقف على غلوة من تواتر الرشق فأقول : هي إياها ، ورأيت تعثرَ قمرِ ليل الشباب بأذيال كسوفِ شمسِ الشيب وانهزامَه ، وولوجَ ربيعِ العمر على قيظ انقضائه بأمارات الهرمِ وانهدامَه ، وقفت ها هنا راجياً فيه نيل الأمنيَّة ، بإهداء عروسه إلى الخُطَّاب قبل المنيَّة ، وخشيت بغتة الموت ، فبادرت بإبرازه الفوت ، على أنني من اقتحام ليلِ المنية عليّ قبل تبلج فجره على الآفاق لجِدّ حذر ، ومن فلول حدّ الحرص لعدم المُحرَض عليه والراغب فيه منتظر ، فكيف ثقتي بجيش عُمر قد بيتته من كتائب الأمراض المبهمة حواطمُ المقانب ، أو أركن إلى إصباح ليل اعترضتني فيـــه العوارضُ منْ كل جانب » (١)

ومع ذلك فليس معنى تواضع هذا العالم وإقراره بأنه لم يصل إلى التثبت من كل ما ورد في كتابه أنه أهمل أو قصر ، فسرعان ما تدركه نشوة العمل وطربُ العلم وكبرياء المعرفة فيقول في ثقة واطمئنان :

« وعلى ذلك فإنني أقول ولا أحتشم ، وأدعو إلى النزال كل علَم في العِلْم ولا أنهزم : إن كتابي هذا أوحدُ في بابه ، مؤمر على أضرابه ، لا يقوم بإبراز مثله إلا من أيّد بالتوفيق ، وركب في طلب فوائده كل طريق » (٢).

ثم لا يلبث أن يعود إلى هدوئه وتواضعه ، فيعترف بأنه لم يستوعب البلدان والمواقع ، ذلك أن « الاستيعاب شيء لا يفي به طولُ الأعمـار ،

---

(١) معجم البلدان ١ : ١٣ .
(٢) المصدر نفسه ١ : ١٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويحول دونه مانعا العجز والبوار ، فقطعته والعين طامحة ، والهمة إلى طلب الازدياد جامحة ، ولو وثقت بمساعدة العمر وامتداده ، وركنت إلى توفيقي لرجائي فيه واستعداده ، لضاعفت حجمه أضعافاً ، ولزدت في فوائده مئين بل آلافا »(١) .

وفي المقدمة مزية أخرى من مزايا العالم ، ذلك أنه لا يكتفي بالقليل ولا يؤمن بالمختصرات ، فالاختصار تشويه للمؤلف وتقطيع للأطراف من ناحية ، وهو أيضاً دليل على قصر الهمة وضعف المنة في التحصيل والتنقيب :

« ولقد التمس مني الطلاب اختصار هذا الكتاب مراراً ، فأبيت ، ولم أجد على قصر هممهم أولياء ولا أنصارا ، فما انقدت لهم ولا ارعويت ، ولي على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه ألا يضيع نصبي ، ونصب نفسي له وتعبي ، بتبديد ما جمعت ، وتشتيت ما لفقت ، وتفريق ملتئم محاسنه ، ونفي كل علق نفيس عن معادنه ومكامنه ، باقتضابه واختصاره ، وتعطيل جيده من حليه وأنواره ...

فإن أجبتني فقد بررتني ، جعلك الله من الأبرار ، وإن خالفتني فقد عققتني ، والله حسبك في عقبى الدار(٢) ... ويبدي ياقوت رأيه في اختصار الكتب وهي عادة أساءت إلى العلم والأدب في العصور المتأخرة ، فكنت ترى الكتاب يؤلّف ثم يختصر ، ثم يشرح ، ثم يعاد شرحه ثم يؤلف من جديد .

يقول ياقوت :

ثم اعلم أن المختصر لكتاب كمن أقدم على خلق سوي ، فقطع أطرافه فتركه أشلّ اليدين ، أبتر الرجلين ، أعمى العينين ، أصلم الأذنين ، أو كمن سلب امرأة حليها فتركها عاطلا ، أو كالذي سلب الكمي سلاحه فتركه أعزل راجلا .. وقد حكي عن الجاحظ أنه صنف كتابا ، وبوبه أبوابا ،

---

(١) معجم البلدان ١ : ١٣ .

(٢) المصدر نفسه ١ : ١٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء ، وجعله أشلاء ، فأحضره وقال له : يا هذا إنّ المصنف كالمصور ، وإني قد صورت في تصنيفي صورة كانت لها عينان فصورتها ، أعمى الله عينيك ، وكان لها أذنان فصلمتها صلم الله أذنيك ، وكان لها يدان فقطعتها قطع الله يديك ، حتى عدد أعضاء الصورة ، فاعتذر إليه الرجل بجهله هذا المقدار ، وتاب إليه عن العودة إلى مثله (١) »

في هذه المقدمة القصيرة للكتاب نجد ياقوتاً يستشهد مرتين بالجاحظ ، ولعل في استشهاده به وحبّه له ما يشير إلى علاقة بينهما في طرق البحث والتفكير ، وقديماً قيل : كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً . ولعل كتب ياقوت أن تكون مثل كتب الجاحظ تعلم العلم أولاً والأدب ثانياً .

فأين نجد العلم في كتب ياقوت ؟

البحث العلمي في مقدمة الكتاب :

يقدم ياقوت لمعجمه بمقدمة تتألف من خمسة أبواب ، أولها في صفة الأرض ، وثانيها في ذكر الأقاليم السبعة ، وثالثها في تفسير الألفاظ الواردة في الكتاب مثل البريد والفرسخ والميل وغير ذلك . ورابعها في أحكام أراضي الفيء والغنيمة وكيفية قسمة ذلك ، وخامسها في جمل من أخبار البلدان ثم تنتهي المقدمة ليبدأ الكتاب ويهمنا من المقدمة في الدرجة الأولى أن نعرف موقف ياقوت من صفة الأرض .

أول ما يفتتح به المؤلف صفة الأرض تفسيره لقول الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً ، وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ وقوله عز وجل : ﴿وَالَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً ، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً ﴾ .

(١) معجم البلدان ١ : ١٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويقول ياقوت : « قال المفسرون : البساط والمهاد : القرار والتمكن منها والتصرف فيها »[١] ثم يورد اختلاف القدماء في هيئة الأرض وشكلها ، ويذكر أن الذي يعتمد عليه جماهيرهم أن الأرض مدورة كتدويرة الكرة وينفذ إلى قول من أقوالهم يهمنا جداً لما أسفر عنه العلم حين يذكر أن الذي يرى من دوران الكواكب إنما هو دور الأرض لا دور الفلك ، ويصور ياقوت هذه الأفلاك ويجعل الأرض في وسطها . ثم يقول في اطمئنان : وأصلح ما رأيت في ذلك وأسده في رأيي ما حكاه محمد بن أحمد الخوارزمي قال : الأرض في وسط السماء ، والوسط هو السفل بالحقيقة ، والأرض مدورة بالكلية ، مضرسة بالجزئية من جهة الجبال البارزة ، والوهدات الغائرة ، ولا يخرجها ذلك من الكروية ، إذا وقع الحس منها على الجملة ، لأن مقادير الجبال وإن شمخت صغيرة بالقياس إلى كل الأرض . . . . ولولا هذا التضريس لأحاط بها الماء من جميع الجوانب وغمرها حتى لم يكن يظهر منها شيء . . . ولما برز سطح الأرض ما برز جاز الماء إلى الأعماق ، فصار بحاراً ، وصار مجموع الماء والأرض كرة واحدة يحيط بهـــا الهواء من جميع جهاتها[٢] . . . . وقال أبو الريحان : وسط معدل النهار يقطع الأرض بنصفين على دائرة تسمى خط الاستواء ، فيكون أحد النصفين شمالياً والآخر جنوبياً ، . . . على أنه بقي منها نحو قطب الشمال قطعة غير معمورة من إفراط البرد ، وتراكم الثلوج ، وقال مهندسوهم : لو حفر في الوهم وجه الأرض لأدى إلى الوجه الثاني للأرض . . .

---

(١) معجم البلدان ١ : ١٦ .

(٢) معجم البلدان ١ : ١٧ — ١٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبعد أن يورد ياقوت كل هذه الأقوال إيراد المؤثر لها ، المقتنع إلى حد ما بها ، ينتقل إلى الأساطير والخرافات فيوردها أيضاً إيراد العالم الذي يجب أن ينقل أقوال الناس ، وإن كان غير مقتنع بها ولا راض عنها ، أمانة منه لعلمه ، وحرصاً منه على ذكر ما بين الناس من خلاف ، وها هو ذا يقول : وفي أخبار قصّاص المسلمين أشياء عجيبة تضيق بها صدور العقلاء ، أنا أحكي بعضها غير معتقد بصحتها : رَوَوا أن الله تعالى خلق الأرض تكفأ كما تكفأ السفينة ، فبعث الله ملكاً حتى دخل تحت الأرض فوضع الصخرة على عاتقه ، ثم أخرج يديه إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب ، ثم قبض على الأرضين السبع فضبطها فاستقرت ، ولم يكن لقدمه قرار ، فأهبط الله ثوراً من الجنة له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة ، فجعل قرار قدمي الملك على سنامه فلم تصل قدماه إليه ، فبعث الله ياقوتة خضراء من الجنة مسيرها كذا ألف عام . فوضعها على سنام الثور فاستقرت عليها قدماه ، وقرون الثور خارجة من أقطار الأرض مشبكة تحت العرش ، ومنخر الثور في ثقبين من تلك الصخرة تحت البحر ، فهو يتنفس كل يوم نفسين ، فإذا تنفس مدّ البحر ، وإذا ردّه جزر ؛ ولم يكن لقوائم الثور قرار ، فخلق الله تعالى كمكاً كغلظ سبع سموات وسبع أرضين ، فاستقرت عليها قوائم الثور ، ثم لم يكن للكمكم مستقر فخلق الله تعالى حوتاً يقال له « بلهوت » ، فوضع الكمكم على وبر ذلك الحوت والوبر الجناح الذي يكون في وسط ظهر السمكة ، وذلك الحوت على ظهر الريح العقيم ، وهو مزموم بسلسلة كغلظ السموات والأرضين معقودة بالعرش . قالوا : ثم إن إبليس انتهى إلى ذلك الحوت ، فقال له : إن الله لم يخلق خلقاً أعظم منك فلم لا تزلزل الدنيا ، فهمّ بشيء من ذلك ، فسلط الله عليه بقة في عينيه فشغلته ، وزعم بعضهم أن الله سلط عليه سمكة كالشطبة فهو مشغول بالنظر إليها ويهابها ، قالوا : وأنبت الله تعالى من تلك الياقوتة التي على سنام الثور ، جبل قاف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فأحاط بالدنيا ، فهو من ياقوتة خضراء ، فيقال والله أعلم إن خضرة السماء منه ، ويقال إن بينه وبين السماء قامة رجل ، وله رأس ووجه ولسان ، وأنبت الله تعالى من قاف الجبال وجعلها أوتاداً للأرض كالعروق للشجر ، فإذا أراد الله عز وجل أن يزلزل بلداً أوحى الله إلى ذلك الملك : أن زلزل ببلد كذا ، فيحرك عرقاً مما تحت ذلك البلد ، فيتزلزل ، وإذا أراد أن يخسف ببلد أوحى الله إليه : أن اقلب العرق الذي تحته ، فيقلبه فيخسف البلد ، وزعم وهب بن منبه أن الثور والحوت يبتلعان ما ينصب من مياه الأرض ، فإذا امتلأت أجوافها قامت القيامة . وقال آخرون : إن الأرض على الماء ، والماء على الصخرة ، والصخرة على سنام الثور ، والثور على كمكم من الرمل متلبد ، والكمكم على ظهر الحوت ، والحوت على الريح العقيم ، والريح على حجاب من الظلمة ، والظلمة على الثرى ، وإلى الثرى ينتهي علم الخلائق ، ولا يعلم ما وراء ذلك إلا الله . قال الله تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ .

ذكر ياقوت كل تلك الأساطير التي رواها القصاص : ثم أسرع ليقرر رأي الباحث العلمي الرصين .

قال عبيد الله الفقير مؤلف الكتاب : « كتبنا قليلاً من كثير مما حُكي من هذا الباب ، وههنا اختلاف وتخليط لا يقف عند حد ، غير ما ذكرنا ، لا يكاد ذو تحصيل يسكن إليه ، ولا ذو رأي يعول عليه ، وإنما هي أشياء تكلم بها القصاص للتهويل على العامة على حسب عقولهم ، لا مستند لها من عقل ولا نقل[1] . . . »

---

(١) بل في الكتاب العزيز ما يردّ الأقوال التي لا مستند لها على أصحابها ، قال تعالى : « ما أشهدتهم خلقَ السموات والأرض ، ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذاً المضلين عَضُدا » سورة الكهف ، الآية ١٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد حاول كثير من الناس أن يصوروا لنا هذه الأساطير في صورة الحقائق العلمية التي آمن بها أجدادنا ونقلوها إلينا ، وكلمة ياقوت هذه وما أوردناه من آراء الجغرافيين العرب يدل دلالة قاطعة على أن العلم غير هذه الأساطير ، وإلى أننا كنا أقرب إلى العلم الصحيح مما يظن هؤلاء الذين لا يعرفون تراثنا العلمي ، ويحكمون علينا ويا للأسف بما يتناقله العامة وأشباه العامة من بقايا الأساطير التي ليس لها مستند من نقل ولا عقل ـ كما يقول ياقوت ـ المشكلة كل المشكلة أن تلك الأمور العلمية التي تكاد تكون صحيحة قد ضاعت في عصور الجهل والطغيان ، لتبقى لنا هذه الأساطير وحدها بين العامة وأشباه العامة ، وإذا الأجيال تتناقلها جيلاً بعد جيل ، وإذا العلم يصبح خرافة ، والعقل يصبح أسطورة ، وما أحسن ما قال الشاعر :

إذا ما الجهل خيَّم في بلادٍ رأيت أسودها مُسخت قرودا

نعم ورأيت علماءها يُمسخون مشعوذين .

* * *

فإذا تركنا الباب الأول وانتقلنا إلى الباب الثاني ، وجدنا ملامح الدقة في الحديث والنقل والتعليق ، ما تزال كما كانت في الباب الأول ، وهذا الباب في ذكر الأقاليم السبعة واشتقاقها ، ويورد أول ما يورد رأي حمزة الأصفهاني من أن الأرض مستديرة الشكل ، وأن المسكون منها دون الربع ، ثم يقول والأرض .. ثلاثة أرباعها مغمورة بالماء ، والربع الباقي مكشوف ، والمعمورة هي المسكون من هذا الربع المكشوف ، ثلثه وثلث عشره ، والباقي خراب .

وهذا العمران ما بين خط الاستواء إلى القطب الشمالي . . . وينقسم العمران إلى سبعة أقاليم ، والأرض مقسومة نصفين بينها خط الاستواء ، وهو من المشرق إلى المغرب وهو أطول خط في كرة الأرض ، ويعلّل ياقوت اختلاف الليل والنهار واختلاف درجات الحرارة والبرودة في جهتي الشمال والجنوب من خط الاستواء ، أما في خط الاستواء فإن الحرارة لا تتغير : قال أبو الريحان :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

«نحن إذا تأملنا الاختلافات التي تلحق الليل والنهار من ولوج أحدهما على الآخر ، على طرفي الصيف والشتاء ، فالذي يحدث في الهواء من احتدام الحر وكلب البرد وما يتبع ذلك من تأثير الأرض والماء بينها ، وجدناها بحسب الإمعان ، في جهتي الشمال والجنوب فقط ، وإننا متى لزمنا نحو المشرق والمغرب مداراً واحداً لا يقربنا سلوكه من شمال أو جنوب ، لم يختلف علينا شيء» .

ثم يقسم ياقوت الأقاليم حسب طول الليل والنهار ويقول : قال بعضهم : العمران في الجانب الشمالي من الأرض أكثر منه في الجانب الجنوبي . وهذا صحيح .

إلى هنا ننتهي من مقدمة الكتاب لننتقل إلى متنه ، فهل نجد الروح العلمية التي وجدناها في المقدمة ما تزال تسيطر على متن الكتاب ؟ الحق أن كثيراً من المؤلفين قد التزموا في مقدمات كتبهم قواعد العلم والعقل والبحث ، فإذا شرعوا في كتابة كتبهم انتقلوا إلى رُواةٍ ما يزال نصيبهم من البحث يتوارى ثم يتوارى حتى لا نجد له أثرا . . . وأكبر مثال على ذلك ابن خلدون ، فهو في مقدمته عالم بارز ، واجتماعي مدقق ، وفيلسوف من فلاسفة التاريخ ، فإذا قرأنا كتابه في التاريخ لم نجده يطبق على التاريخ بحثه وأصول فلسفته .

ولا كذلك ياقوت ، بل إن كتابه يدلّ على تقيده بما جاء في مقدمته ، وربما زاد على ما شرطه فيها .

الفكر العلمي في الكتاب :

إلى هنا ننتهي من المقدمة لنبدأ رحلتنا مع الكتاب .

لقد جعل ياقوت كتابه معجماً للبلدان ، وقسم أبوابه حسب الحروف الأبجدية وتقيد بهذه الحروف تقيداً كاملاً . وكان يذكر اسم المكان أو البلد ثم يشكله بالقول : ولا يكتفي بشكله بالحركات ، ثم يذكر معناه وينتقل إلى موقعه ويتحدث عن المواقع الأخرى التي يتكرر فيها اسم هذا المكان ، وينقل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما ورد فيه من شعر ، وكثيراً ما يأتي بما يعرف عنه من حكايات وقصص ، وما يروى عنه من عجائب وأساطير ، ويقف من هـذه العجائب موقف الحذر الواعي ، فطالما قال : روى بعض الناس ، وزعم فلان ، وهكذا ذكر صاحب هذا الكتاب أو ذاك وما أكثر ما يردد بعـد إيراده حادثة أو قصة قول المتقين من المسلمين الذين يتورعون من التصديق كما يتورعون من التكذيب فيقولون : والله أعلم . ولكن ياقوتاً لا يكتفي بهذا النوع من الحيطة والحذر ، وهو حذر سلبي ، بل يزيد على ذلك فيتبرأ من المبالغة ، فقد ذكر في مادة (أتل) شيئاً من رسالة ابن فضلان في وفادته على البلغار والصقالبة وكان رسول الخليفة المقتدر إليهم ثم قال يعتذر عما نقل :

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ هذا وأمثاله هو الذي قدمت البراءة منه ولم أضمن صحته (١) .

ويسير ياقوت خطوة أخرى في طريق العلم فيعتمد على تراجم الرجال في إثبات بعض الحوادث أو إنكارها .

قال ياقوت بعد أن تحدث عن نار عظيمة جاء في كتاب « الابستاق » وهو كتاب ملة المجوس أن رماد تلك النار شبه تل عظيم ، وأن هذا التل يسمى جبل ابراهيم فأنكر التسمية وأنكر الحادثة ثم قال : ولم يشاهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ أرض فارس ولا دخلها .

ويعتمد ياقوت على العلم في إنكاره بعض ما يزعمه الزاعمون . قال أبو بكر الهروي وهو يتحدث عن جماعة من القتلى في غار ، ويزعمون أن أظافرهم تطول وأن رؤوسهم تحلق ، ثم يضيف : « وليس لذلك صحة ، إلا أنهم قد يبست جلودهم على عظامهم ولم يتغيروا (٢) » ويمضي ياقوت خطوات أخرى

(١) المعجم ١ : ٨٨ .
(١) المعجم ١ : ٧٠ .
(٢) المعجم ١ : ٧١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في طريق العلم ، فهو يسأل من طرق تلك البلاد (١) عما يرويه الناس عنها ، وإذا لم يجد من سافر إليها سأل أهل المعرفة قال وقد ذكر (اندرين) التي وردت في شعر عمرو بن كلثوم :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

وذكر أنها اسم قرية في جنوبي حلب . وقد سألت عنه أهل المعرفة من أهل حلب ، فكل وافق عليه (٢) .

والطريق الثالثة للمعرفة هي زيارته للأماكن بنفسه وحكايته لما شاهد بعينيه فهو يقول رأيتها حيناً وزرتها حيناً ودخلتها حيناً وربما قال : رأيتها مراراً (٣) .

وياقوت يحترم العلم فإذا بدا له وجهان في مسألة من المسائل لم يقطع بأحدهما ، وذكر أن كليهما جائز . أورد ناحية اسمها (أشتر) ثم قال : ينسب إليها جماعه منهم : أبو محمد مهران بن محمد الأشتري البصري ، ثم راجع نفسه فقال : ولم يتحقق لي هل هو من هذا الموضع أم بعض أجداده كان يقال له الأشتر ؟

وسنذكر فيما يلي بعض النماذج من معجم البلدان لياقوت ثم نورد رأيه فيها ، وقد اخترنا هذه النماذج حسب ورودها في المعجم ، وقد رأينا أن خير ما يدلنا على تفكيره العلمي أن نجد هذا التفكير في أصوله :

● أصبهان : ويسرفون في وصف عظمها حتى يتجاوزوا حدّ الاقتصاد إلى غاية الإسراف ، (١ : ٢٠٦) .

وسألت جماعة من عقلاء أهل اصبهان عما يحكى من بقاء جثة الميت بها في مدفنها ؟ فذكروا لي أن ذلك بموضع منها مخصوص وهو في مدفن المصلّي لا في جميع أرضها (١ : ٢٠٧) .

---

(١) المعجم ١ : ٢٤٦ .
(٢) المعجم ١ : ٢٦١ .
(٣) المعجم ١ : ٤٧٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

● اللان : وأما أنا الفقير فسألت من طرق تلك البلاد فخبرني بما ذكرته أولاً (١ : ٢٤٦) .

● أمّ القُرى: من أسماء مكة : قال نفطويه : سميت بذلك لأنها أصل الأرض منها دُحِيَتْ ، وقال الليث : كل مدينة هي أم ما حولها من القرى . (١ : ٢٥٥) .

● أندرين : وقد سألت أهل المعرفة من أهل حلب ، فكل وافق عليه . (١ : ٢٦١) .

● بابل : قلت : وهذا خبر نقلته على ما وجدته ، والله المستعان عليه (١ : ٣١٠) .

وينقل ياقوت بعض أخبار بابل فيقول :

وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل دهقان الفلوجة عن عجائب بلادهم فقال : كانت بابل سبع مدن في كل مدينة أعجوبة ليست في الأخرى ، فكان في المدينة التي نزلها الملك بيت فيه صورة الأرض كلها برساتيقها وقُراها وأنهارها فمتى التوى أحد بحمل الخراج من جميع البلدان ، خرق أنهارها ففرقهم وأتلف زروعهم وجميع ما في بلدهم حتى يرجعوا عما هم به ، فيسدّ بإصبعه تلك الأنهار فيستدّ في بلدهم ، وفي المدينة الثانية حوض عظيم فإذا جمعهم الملك لحضور مائدته حمل كل رجل ممن حضر من منزله شراباً يختاره ثم صبه في ذلك الحوض فإذا جلسوا للشراب شرب كل واحد شرابه الذي حمله من منزله ، وفي المدينة الثالثة طبل معلق على بابها فإذا غاب من أهلها إنسان وخفي أمره على أهله وأحبوا أن يعلموا أحيٌّ صاحبُهم أم ميت ضربوا ذلك الطبل فإن سمعوا له صوتاً فإن الرجل حي ، وإن لم يسمعوا له صوتاً فإن الرجل قد مات ، وفي المدينة الرابعة مرآة من حديد فإن غاب الرجل عن أهله وأحبوا أن يعرفوا خبره على صحته أتوا تلك المرآة فنظروا فيها فرأوه على الحال التي هو فيها ، وفي المدينة الخامسة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إوزة من نحاس على عمود من نحاس منصوب على باب المدينة فإذا دخلها جاسوس صوتت الإوزة بصوت سمعه جميع أهل المدينة فيعلمون أنه قد دخلها جاسوس ، وفي المدينة السادسة قاضيان جالسان على الماء فإذا تقدم إليهما الخصمان وجلسا بين أيديهما غاص المبطل منهما في الماء ، وفي المدينة السابعة شجرة من نحاس ضخمة كثيرة الغصون لا تظل ساقها ، فإن جلس تحتها واحد أظلته إلى ألف نفس ، فإن زادوا على الألف ولو بواحد صاروا كلهم في الشمس قلت وهذه الحكاية كما ترى خارقة للعادات بعيدة من المعهودات ولو لم أجدها في كتب العلماء لما ذكرتها ، وجميع أخبار الأمم القديمة مثله والله أعلم . (١ : ٣١٠ — ٣١١) .

● بلجان : رأيتها مراراً (١ : ٤٧٩) .

● بلط : اسم لمدينة بلد المذكورة آنفاً فوق الموصل ... ذكر هشام عن أبيه قال : التقم الحوت يونس بن متى عليه السلام ، في بحر الشام ثم أخرجه في بحر مصر ، ثم إلى بحر افريقية ، ثم أدخله في بحر المجاز عند طنجة ، حتى سلك في بحر الأصم ثم أخذ به مجرى الدبور حتى سلك به في البحر الذي يسقي البحار التي بالمشرق ، ثم خرج به في بحر البصرة حتى أدخله دجلة ثم لفظه بمكان من الحصنين على سبعة فراسخ ، فأبصره سرياني فقال : افلط : أي اخرج من بطن الحوت : يقول افلت ، فسمي ذلك الموضع فلط ثم بلط ثم بلد .

قلت : وهذا خبر عجاب بعيد عن الصحة في العقل (١ : ٢٨٤)

● بيت رامة : قرأت في الكتاب الذي ألفه أبو محمد القاسم بن أبي القاسم علي ابن الحسن بن هبة الله الحافظ الدمشقي في فضائل بيت المقدس : ... ، وارتفاع القبة ثمانية عشر ميلاً ، وفوق القبة غزال من الذهب بين عينيه درة حمراء يقعد نساء البلقاء ويغزلن في ضوئها ليلا ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهكذا وجدت الخبر كما تراه مسندا ، وفيه طـــول ، وهو أبعد من السماء عن الحق والله المستعان (١ : ٥٢٠)

● تبنى : قال النابغة :

فلا زال قبر بين تبنى وجاسم عليه من الوسمي جود ووابل

وعلل ذلك ياقوت فقال :

قصد الشعراء بالاستسقاء للقبور ـ وإن كان الميت لا ينتفع بذلك ـ أن ينزله الناس فيمروا على ذلك القبر فيترحموا على من فيه . (٢ : ١٤)

● تدمر : زعم قوم أنها مما بنته الجن لسليمان عليه السلام ونعم الشاهد على ذلك قول النابغة الذبياني :

إلاَّ سليمان ، إذ قال الإله له قم في البرية فاحددها عن الفَنَدِ

وخيس الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمدِ

وأهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داوود عليه السلام بأكثر مما بيننا وبين سليمان ، ولكن الناس إذا رأوا بناء عجيباً جهلوا بانيه أضافوه إلى سليمان وإلى الجن (٢ : ١٧) .

● تعهن : وتعهن صخرة يقال لها أم عق ، فحين مرَّ رسول الله ﷺ ، استسقاها فلم تسقه فدعا عليها فمسخت صخرة فتلك هي الصخرة . كله عن السهيلي .

وياقوت عند الأحاديث يتوقف ويذكر أنه نقل نقلاً .

● حلب : قال الزجاجي : سميت حلب لأن إبراهيم عليه السلام كان يحلب فيها غنمه في الجمعات ويتصدق به ، فيقول الفقراء : حلب حلب فسمي به قلت أنا : وهذا فيه نظر لأن إبراهيم عليه السلام عاش وأهل حلب في أيامه لم يكونوا عرباً ... فإن كان لهذه اللفظة أعني حلب أصل في العبرانية أو السريانية لجاز ذلك لأن كثيراً من كلامهم يشبه كلام العرب لا يفارقه إلا بعجمة يسيرة (٢ : ٢٨٢) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

● باكويه : فيه عين نفط عظيمة ... وحدثني من أثق به من التجار أنه رأى هناك أرضاً لا تزال تضطرم ناراً وأحسب أن ناراً سقطت فيه من بعض الناس فهي لا تنطفئ لأن مادتها معدنية (١ : ٣٢٨) .

● بحيرة أرجيش : وهي بحيرة خلاط ... قال ابن الكلبي من عجائب ارمينية بحيرة خلاط فإنها عشرة أشهر لا يرى فيها ضفدع ولا سمكة وشهران في السنة يظهر فيها حتى يقبض باليد ... وقيل ان قباز الأكبر لما أرسل بلييناس يطلسم بلاده طلسم هذه البحيرة فهي إلى الآن عشرة أشهر لا تظهر فيها سمكة .

قلت : وهذا من هذيان العجم وإنما هناك سر خفي . (١ : ٣٥٠)

هكذا كان ما لا يعقل ينسب إلى هذيان العجم ، فمن الذي ينسب الهذيان إليه اليوم ؟

● البرابي : في الحديث عن ساحرة صنعت صوراً إذا تحركت صنع الناس ما تصنع وردت الغزو عن مصر بذلك .

قلت : ... وهذه القصة المذكورة قل أن يخلو منها كتاب في أخبار مصر ، فلذلك ذكرت ، وإن كانت بالخرافة أشبه . (١ : ٣٦٢) .

● بغداد : بعد أن نقل زيج بغداد ودرجتها وسمت قبلتها قال : هذا كله نقلته من كتب المنجمين ، ولا أعرفه ولا هو من صناعتي . (١ : ٤٥٧) .

● تركستان : قال أبو العباس : وسمعت إسماعيل بن أحمد الساماني أمير خراسان يقول : غزوت الترك في بعض السنين في نحو عشرين ألف رجل من المسلمين ، فخرج إلي منهم ستون ألف في السلاح الشاك فوافقتهم أياماً ، فاني لَيوماً في قتالهم إذ اجتمع إليَّ خلق من غلمان الأتراك وغيرهم من الأتراك المستأمنة فقالوا لي : إن لنا في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عسكر الكفرة قرابات وإخواناً ، وقد أنذرونا بموافاة فلان ، قال : وكان هذا الذي ذكروه كالكاهن عندهم ، وكانوا يزعمون أنه ينشئ سحاب البَرَدِ والثلج وغير ذلك فيقصد بها من يريد هلاكه ، وقالوا : قد عزم أن يمطر على عسكرنا بَرَداً عظاماً لا يصيب البردُ إنساناً إلا قتله ، قال : فانتهرتهم وقلت لهم : ما خرج الكفر من قلوبكم بعد ، وهل يستطيع هذا أحد من البشر ؟ قالوا : قد أنذرناك وأنت أعلم غداً عند ارتفاع النهار ، فلما كان من الغد وارتفاع النهار نشأت سحابة عظيمة هائلة من رأس جبل كنت مستنداً بعسكري إليه ، ثم لم تزل تنتشر وتزيد حتى أظلت عسكري كله ، فهالني سوادها وما رأيت منها وما سمعت فيها من الأصوات الهائلة وعلمت أنها فتنة ، فنزلت عن دابتي وصليت ركعتين وأهل العسكر يموج بعضهم في بعض وهم لا يشكون في البلاء ، فدعوت الله وعفَّرت وجهي في التراب وقلت : اللهم أغثنا ! فإن عبادك يضعفون عن محنتك ، وأنا أعلم أن القدرة لك ، وأنه لا يملك الضر والنفع إلا أنت ، اللهم إن هذه السحابة إن أمطرت علينا كانت فتنة للمسلمين وسطوة للمشركين ، فاصرف عنا شرها بحولك وقوتك ياذا الجلال والحَول والقوة ، قال : وأكثرت الدعاء ووجهي على التراب رغبة ورهبة إلى الله تعالى ، وعلماً انه لا يأتي الخير إلا من عنده ، ولا يصرف السوءَ غيره ، فبينا أنا كذلك إذ تبادر إليَّ الغلمان وغيرهم من الجند يبشرونني بالسلامة ، وأخذوا بعضدي ينهضوني من سجدتي ويقولون : انظر أيها الأمير فرفعت رأسي ، فإذا السحابة قد زالت عن عسكري وقصدت عسكر الترك تمطر عليهم بَرَداً عظاماً وإذا هم يموجون وقد نفرت دوابُّهم وتقطعت خيامهم ، وما تقع بردة على واحدٍ منهم إلا أوهنته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أو قتلته فقال أصحابي : نحمل عليهم ؟ فقلت : لا ، لأن عذاب الله أدهى وأمرّ . ولم يفلت منهم إلا القليل ، وتركوا عسكرهم بجميع ما فيه وهربوا فلما كان الغد جئنا إلى معسكرهم فوجدنا فيه من الغنائم ما لا يوصف ، فحملنا ذلك وحمدنا الله على السلامة ، وعلمنا أنه هو الذي سهل لنا ذلك وملكناه . قلت : هذه أخبار سطرتها كما وجدتها والله أعلم بصحتها . (٢ : ٢٥ — ٢٦)

● خوارزم : والشتاء عندهم شديد جدّاً بحيث اني رأيت جيحون نهرهم ، وعرضه ميل ، وهو جامد ، والقوافل والعجل الموقرة ذاهبة آتية عليه .... والغالب على خلق أهلها الطول والضخامة ، وكلامهم كأنه أصوات الزرازير ، وفي رؤوسهم عرض ، ولهم جبهات واسعة ، وقيل لأحدهم : لِمَ رؤوسكم تخالف رؤوس الناس ؟ فقال : إن قدماءنا كانوا يغزون الترك فيأسرونهم وفيهم شبه من الترك ، فما كانوا يعرفون ، فربما وقعوا إلى الإسلام فبيعوا في الرقيق ، فأمروا النساء إذا ولدن ان يربطن أكياس الرمل على رؤوس الصبيان ، ومن الجانبين حتى ينبسط الرأس ، فبعد ذلك لم يسترقّوا ، وردّ من وقع منهم إليهم إلى الكوفة ، قال عبد الله الفقير إليه : وهذا من أحاديث العامّة لا أصل له ، هب أنهم فعلوا ذلك فيما مضى فالآن ما بالهم ؟ فإن كانت الطبيعة ورثته وولدته على الأصل الذي صنعته بهم أمهاتهم ، كان يجب أن الأعور الذي قلعت عينه أن يلد أعور وكذلك الأحدب وغير ذلك ، وإنما ذكرت ما ذكر الناس .....

● رسالة ابن فضلان : وقرأت في الرسالة التي كتبها أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد ابن حماد مولى محمد بن سليمان رسول المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة ، ذكر فيها ما شاهده منذ خرج من بغداد إلى أن عاد إليها ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقال بعد وصوله إلى بخارى قال : وانفصلنا من بخارى إلى خوارزم وانحدرنا من خوارزم إلى الجرجانية ، وبينها وبين خوارزم في الماء خمسون فرسخاً ، قلت : هكذا قال ولا أدري أي شيء عنى بخوارزم ، لأن خوارزم هو اسم الإقليم بلا شك ، ورأيت دراهم بخوارزم مزيفة ورصاصاً وزيوفاً وصفرا ، ويسمون الدرهم طازجة ووزنه أربعة دوانق ونصف ، والصيرفي منهم يبيع الكعاب والدوامات والدراهم ، وهم أوحش الناس كلاماً وطبعاً ، وكلامهم أشبه بنقيق الضفادع ، وهم يتبرؤون من أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه في دبر كل صلاة ، فأقمنا بالجرجانية أياماً ، وجمد جيحون من أوله إلى آخره ، وكان سمك الجمد تسعة عشر شبراً ، قال عبد الله الفقير : وهذا كذب منه فإن أكثر ما يجمد خمسة أشبار وهذا يكون نادراً فأما العادة فهو شبران أو ثلاثة ، شاهدته وسألت عنه أهل تلك البلاد ولعله ظن أن النهر يجمد بحاله ، وليس الأمر كذلك ، إنما يجمد أعلاه ، وأسفله جار ويحفر أهل جوارزم في الجليد ويستخرجون منه الماء لشربهم لا يتعدي ثلاثة أشبار إلا نادراً ، قال : وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطريق ، وهو ثابت لا يتحلحل ، فأقام على ذلك ثلاثة أشهر ، فرأينا بلداً ما ظننا إلا أن باباً من الزمهرير فتح علينا منه ، ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصفة شديدة ، قلت : وهذا أيضاً كذب فإنه لولا ركود الهواء في الشتاء في بلادهم لما عاش فيها أحد ، قال : وإذا أتحف الرجل من أهله صاحبه وأراد بره قال : تعال إلي حتى نتحدث فإن عندي ناراً طيبة ، هذا إذا بالغ في بره وصلته ، إلا أن الله عز وجل قد لطف بهم في الحطب وأرخصه عليهم ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حمل عجلة من حطب الطاغ وهو الغضا بدرهمين يكون وزنها ثلاثه آلاف رطل ، قلت : وهذا أيضاً كذب لأن العجلة أكثر ما تجر على ما اختبرته وحملت قماشاً عليها ألف رطل ، لأن عجلتهم جميعها لا يجرّها إلاّ رأس واحد ، إما بقر أو حمار أو فرس وأمّا رخص الحطب فيحتمل ان كان في زمانه بذلك الرخص ، فأما وقت كوني بها فإن مائة منّ كان بثلث دينار ركني . (٢ : من ٣٩٦ — ٣٩٨)

● دير الوليد : بالشام لا أدري أين هو . (٢ : ٥٤٠)

● رأس عين ويقال رأس العين : والعامة تقول هكذا : ووجدتهم قاطبة يمنعون من القول به ... وهي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة . . . وفي رأس العين عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور . . . و (منها) عين الصرار : وهي التي نثر فيها المتوكل عشرة آلاف درهم ، ونزل أهل المدينة فأخذوها لصفاء الماء ، ولم يفقد منها شيء . . . كذا قال أحمد بن الطيب ، لكني اجتزت أنا برأس عين ولم أر هذه الصفة .

وقال أحمد بن الطيب أيضاً : . . وكانت الزواريق الصغار تدخل إلى عين الزاهرية وإلى عين الهاشمية ، وكان الناس يركبون فيها إلى بساتينهم ، قلت أنا : أما الآن فليس هناك سفينة ، ولا يعرفها أهل رأس عين ، ولا أدري سبب ذلك فإن الماء كثير وهو يحمل سفينة صغيرة كما ذكروا ، ولعل الهمم قصرت فعدم ذلك ... (٣ : ١٤)

● الرقيم : ينقل ياقوت رواية عن عبادة بن الصامت وزيارته لبعض الأموات في الرقيم ، وأن الناس هناك يقلمون أظافرهم ، ويقصون شواربهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مرة في كل عام ، ثم يضجعونهم في أماكنهم ... ويتركونهم إلى عام قادم ، وبعد أن انتهى من هذه الرواية قال .

قال عبد الله الفقير إليه : هذا ما نقلته من كتب الثقات، والله أعلم بصحته.

(٣ : ٦٢)

● الروس : روى بعض الأعاجيب من رسالة ابن فضلان ثم قال : هذا ما نقلته من رسالة ابن فضلان حرفاً حرفاً وعليه عهدة ما حكاه ، والله أعلم بصحته .

(٣ : ٨٣)

● الروم : وفي أخبار بلاد الروم أسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها فليعذر الناظر في كتابي هذا ، ومن كانت عنده أهلية ومعرفة ونقل شيئاً منها علماً فقد أذنت له في إصلاحه مأجوراً . (٣ : ٩٨)

● رومية : ورومية من عجائب الدنيا بناء وعظماً وكثرة خلق ، وأنا من قبل أن آخذ في ذكرها أبرأ إلى الناظر في كتابي هذا مما أحكيه من أمرها ... ولكني رأيت جماعة ممن اشتهروا برواية العلم قد ذكروا ما نحن حاكوه فاتبعناهم في الرواية . وبعـــد أن أورد ذلك قال : فأما أنا فهذا عذري على أنني لم أنقل جميع ما ذكر وإنما اختصرت البعض .

(٣ : ١٠١)

● زقاق ابن واقف : مر في شعر هدبة بن خشرم العذري قال : ومر أبو الحارث جمين يوماً بسوق المدينة ، فخرج رجل من زقاق ابن واقف بيده ثلاث سمكات قد شق أجوافهن وقد خرج شحمهن ، فبكى أبو الحارث وقال : تعس الذي يقول :

فلم ترعيني مثل سرب رأيته خرجن علينا من زقاق ابن واقف

وانتكس ولا انجبر ، والله لهذه الثلاث سمكات أحسن من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السرب الذي وصفه . وقال أبو الفرج الاصبهاني : أحسب هذا الخبر مصنوعاً ، لأنه ليس في المدينة زقاق ابن واقف ولا بها أيضاً سمك كما وصف ، ولكنني رويت كما رويت . قال ياقوت : قلت إن هذا تحكم منه ودعوى ، وقد تتغير أسماء الأماكن حسب تغير أهلها ، وبين زمان أبي الحارث جمين وزمان أبي الفرج دهر .

(٣ : ١٤٥)

● سدّ يأجوج ومأجوج : أورد ما يروى عن التنيّين وتدميره وعظمه . . . ثم قال وقد نقلته كما وجدته ، ولكن تركه أولى . (٣ : ١٩٩)

● الشيّحر : وما يروى عن النسناس ، وان له وجهاً كوجه إنسان ثم قال : وقد ذكرت من خبر النسناس شيئاً آخر في وبار على ما وجدته في كتب العقلاء ، وهو مما اشترطنا انه خارج من العادة ، وأنا بريء من العهدة . (٣ : ٣٢٧)

● الصين : قال في أول حديثه عن الصين :

وهذا شيء من أخبار الصين الأقصى ، ذكرته كما وجدته لا أضمن صحته ، فإن كان صحيحاً فقد ظفرت بالغرض ، وإن كان كذباً فتعرف ما تقوله الناس . (٣ : ٤٤٠)

ثم قال بعد أن ذكر ما ورد عن صنم من الأصنام فيها :

قلت : هـــذا هو الكذب الصراح .

● معارك الجن : كما ذكر ياقوت ما أورده أبو زياد في نوادره عن معركة بين بني مالك وهو بطن من الجن المسلمين ، وبين بني شيصبان وهم بطن من الجن الكفار ، ثم قال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم ذكر أبو زياد أخباراً أخَر لبني الشيصبان ، اقتنعت بما ذكرته ، والله أعلم بصحته وسقمه .

● العاصي : بالصاد المهملة وهو ضد الطائع ، وهو اسم نهر حماة وحمص ويعرف بالمياس ، مخرجه من بحيرة قدس ومصبه في البحر قرب أنطاكية ، واسمه قرب أنطاكية الأرند ، وقيل إنما سمي بالعاصي لأن أكثر الأنهر تتوجـــه ذات الجنوب ، وهو يأخذ ذات الشمال ، وليس هذا بمطّرد (٤ : ٦٧ — ٦٨)

● الفرات : ومما يروى عن السدي والله أعلم بحقه من باطله ، قال : مد الفرات في زمن علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ فألقى رمانة قطعت الجسر من عظمها ، فأخذت فكان فيها كر حب ، فأمر المسلمين أن يقتسموها بينهم وكانوا يرونها من الجثة .

وهذا باطل لأن فواكه الجنة لم توجد في الدنيا ، ولو لم أر هذا الخبر في عدة مواضع من كتب العلماء ما استجزت كتابته .

(٤ : ٢٤٢)

● قويق : وهو نهر مدينة حلب ـ .. وماؤه أعذب ماء وأصحه ، إلا أنه في الصيف ينشف فلا يبقى إلا نزور قليلة ، وأما في الشتاء فهو حسن المنظر ، طيب المخبر ، وقد وصفه شعراء حلب بما ألحقوه بنهر الكوثر ، ومن أمثال عوام بغداد : يفرح بفلس مطلي من لم ير ديناراً .

(٤ : ٤١٧)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

● منارة الحوافر : اعتزل سابور العالم أربع سنين ، واشتغل عاملاً عند صاحب الأرض وتزوج ابنته ، وبعد انقضاء مدة الشقاء أعلن عن نفسه ، وجاءه الوزراء والجيوش ، وصنع منارة من حوافر الوحوش ... وذكر الطيار الأول فقال : ولما فرغ صانعها من بنائها ، مرّ بها سابور يتأملها فاستحسنها ، فقال للذي بناها وهو على رأسها لم ينزل بعد : هل كنت تستطيع أن تبني أحسن منها ؟ قال نعم ، قال : فهل بنيت لأحد مثلها ؟ فقال : لا . قال : والله لأتركنك بحيث لا يمكنك بناء خير منها لأحد بعدي ، وأمر ألا يمكّن من النزول فقال : أيها الملك قد كنت أرجو منك الجاه والكرامة ، وإذ فاتني ذلك فلي قبل الملك حاجة ما عليك فيها مشقة . قال : وما هي ؟ قال : تأمر أن أعطى خشباً لأصنع لنفسي مكاناً آوي إليه لا تمزقني النسور إذا مت ، قال : أعطوه ما يسأل فأعطي خشباً ، وكان معه آلة النجارة ، فعمل لنفسه أجنحة من خشب جعلها مثل الريش ، وضم بعضها إلى بعض . وكانت العماره في قفر ليس بالقرب منه عمارة وإنما بنيت القرية بقربها بعد ذلك . فلما جاء الليل واشتد الهواء ربط تلك الأجنحة على نفسه ، وبسطها حتى دخل فيها الريح وألقى نفسه في الهواء ، فحملته الريح حتى ألقته إلى الأرض صحيحاً ولم يخدش منه خدش ونجا بنفسه... قال عبيد الله الفقير إليه : أمّا غيبة سابور من الملك فمشهورة عند الفرس ، مذكورة في أخبارهم ... والله أعلم بصحة ذلك من سقمه .

(٥ : ٢٠١)

● النيل : ويقال ان ابن عرس إذا رأى التمساح نائماً على شاطئ النيل ألقى نفسه في الماء حتى يبتل ، ثم يتمرغ في التراب ثم يقيم شعره ويثب حتى يدخل في جوف التمساح فيأكل ما في جوفه ، وليس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للتمساح يد تدفع عنه ذلك فإذا أراد الخروج بقر بطنه وخرج . وعجائب الدنيا كثيرة وإنما نذكر منها ما نجربه عادة ، ولهذا أمثال ليس كتابنا بصدد شرحها .

● وانتقل إلى ما روي عن اكتشاف منابع النيل ... ثم قال : قال عبيد الله الفقير إليه مؤلف الكتاب : هذا خبر شبيه بالخرافة ، وهو مستفيض ووجوده في كتب الناس كثير ، والله أعلم بصحته وإنما كتبت ما وجدت . (٥ : ٣٣٧ — ٣٣٩)

● مدينة النحاس : ويقال لها مدينة الصفر ، ولها قصة بعيدة عن الصحة لمفارقتها العادة وأنا بريء من عهدتها ، وانما أكتب ما وجدته في الكتب المشهورة التي دونها العقلاء ، ومع ذلك فهي مدينة مشهورة الذكر فلذلك ذكرتها ، قال ابن الفقيه : ومن عجائب الأندلس أمر مدينة الصفر التي يزعم قوم من العلماء أن ذا القرنين بناها وأودعها كنوزه وعلومه وطلسم بابها فلا يقف عليها أحد ، وبنى داخلها بحجر البهتة وهو مغناطيس الناس ، وذلك ان الإنسان إذا نظر إليها لم يتمالك أن يضحك ويلقي نفسه عليها ، فلا يزايلها أبداً حتى يموت ، وهي في بعض مفاوز الأندلس ، ولما بلغ عبد الملك ابن مروان خبر ما فيها من الكنوز والعلوم وان إلى جانبها أيضاً بحيرة بها كنوز عظيمة ، كتب إلى موسى بن نصير عامله على المغرب يأمره بالمسير إليها ، والحرص على دخولها ، وأن يعرّفه ما فيها ، ودفع الكتاب إلى طالب بن مدرك ، فحمله وسار حتى انتهى إلى موسى بن نصير وكان بالقيروان ، فلما أوصله إليه ، تجهز وسار في ألف فارس نحوها ، فلما رجع كتب إلى عبد الملك ابن مروان : بسم الله الرحمن الرحيم أصلح الله أمير المؤمنين صلاحاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يبلغ به خير الدنيا والآخرة ، أخبرك يا أمير المؤمنين أني تجهزت لأربعة أشهر وسرت نحو مفاوز الأندلس ومعي ألف فارس من أصحابي ، حتى أوغلت في طرق قد انطمست ومناهل قد اندرست وعفت فيها الآثار ، وانقطعت عنها الأخبار ، أحاول بناء مدينة لم ير الراؤون مثلها ، ولم يسمع السامعون بنظيرها ، فسرت ثلاثة وأربعين يوماً ، ثم لاح لنا بريق شُرُفها من مسيرة خمسة أيام ، فأفزعنا منظرها الهائل وامتلأت قلوبنا رعباً من عظمها ، وبعد أقطارها ، فلما قربنا منها إذ أمرها عجيب ، ومنظرها هائل كأن المخلوقين ما صنعوها ، فنزلت عند ركنها الشرقي وصليت العشاء الأخيرة بأصحابي ، وبتنا بأرغب ليلة بات بها المسلمون ، فلما أصبحنا كبرنا استئناساً بالصبح وسروراً به ، ثم وجهت رجلاً من أصحابي في مائة فارس ، وأمرته أن يدور مع سورها ليعرف بابها ، فغاب عنا يومين ثم وافى صبيحة اليوم الثالث ، فأخبرني أنه ما وجد لها باباً ولا رأى مسلكاً إليها ، فجمعت أمتعة أصحابي إلى جانب سورها ، وجعلت بعضها على بعض لينظر من يصعد إليها فيأتيني بخبر ما فيها ، فلم تبلغ أمتعتنا ربع الحائط لارتفاعه وعلوه ، فأمرت عند ذلك باتخاذ السلالم فاتخذت ، ووصلت بعضها إلى بعض بالحبال ، ونصبتها على الحائط ، وجعلت لمن يصعد إليها ويأتيني بخبرها عشرة آلاف درهم ، فانتدب لذلك رجل من أصحابي ، ثم تسنم السلم وهو يتعوذ ويقرأ ، فلما صار على سورها وأشرف على ما فيها قهقه ضاحكاً ، ثم نزل إليها فناديناه : أخبرنا بما عندك وبما رأيته ، فلم يجبنا ، فجعلت أيضاً لمن يصعد إليها ويأتيني بخبرها وخبر الرجل ألف دينار ، فانتدب رجل من حمير ، فأخذ الدنانير فجعلها في رحله ، ثم صعد ، فلما استوى على السور قهقه ضاحكاً ، ثم نزل إليها فناديناه : أخبرنا بما وراءك وما الذي ترى فلم يجبنا ، ثم صعد ثالث فكانت حاله مثل حال اللذين تقدماه ، فامتنع أصحابي بعد ذلك من الصعود وأشفقوا على أنفسهم ، فلما أيست ممن صعد ، ولم أطمع في خبرها ، رحلت نحو البحيرة وسرت مع سور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المدينة ، فانتهيت إلى مكان من السور فيه كتابة بالحميرية ، فأمرت بانتساخها ، فكانت هذه :

ليعلم المرء ذو العز المنيع ومن ... يرجو الخلود وما حي بمخلود
لو أن حياً ينال الخلد في مهل ... لنال ذاك سليمان بن داوود
سألت له العين عين القطر فائضة ... فيه عطاء جليل غير مصرود
وقال للجن : انشوا فيه لي أثراً ... يبقى إلى الحشر لا يبلى ولا يودي
فصيروه صفاحاً ثم ميل به ... إلى البنـــاء بإحكام وتجويد
وأفرغوا القطر فوق السور منحدراً ... فصار صلباً شديداً مثل صيخود
وصب فيه كنوز الأرض قاطبة ، ... وسوف تظهر يوماً غير محدود
لم يبق من بعدها في الأرض سابغة ... حتى تضمن رمساً بطن أخدود
وصار في قعر بطن الأرض مضطجعاً ... مضمناً بطوابيق الجلاميـــد
هـذا ليعلم أن الملك منقطع ... إلا من الله ذي التقوى وذي الجود

ثم سرت حتى وافيت البحيرة عند غروب الشمس ، فإذا هي مقدار ميل في ميل وهي كثيرة الأمواج ، وإذا رجل قائم فوق الماء فناديناه : من أنت ؟ فقال : أنا رجل من الجن كان سليمان بن داود حبس ولدي في هذه البحيرة ، فأتيته لأنظر حاله ، قلنا له فما بالك قائماً على وجه الماء ؟ قال : سمعت صوتاً فظننته صوت رجل يأتي هذه البحيرة في كل عام ، فهذا أوان مجيئه ، فيصلي على شاطئها أياماً ويهلل الله ويمجده ، قلنا : فمن تظنه ؟ قال : أظنه الخضر عليه السلام ، ثم غاب عنا فلم ندر أين أخذ ، فبتنا تلك الليلة على شاطئ البحيرة ، وقد كنت أخرجت معي عدة الغواصين ، فغاصوا في البحيرة ، فأخرجوا منها حباً من صفر مطبقاً رأسه مختوماً برصاص ، فأمرت به ففتح ، فخرج منه رجل من صفر على فرس من صفر بيده مطرد من صفر ، فطار في الهواء وهو يقول : يا نبي الله لا أعود ، ثم غاصوا ثانية وثالثة فأخرجوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مثل ذلك ، فضج أصحابي ، وخافوا أن ينقطع بهم الزاد ، فأموت بالرحيل ، وسلكت الطريق التي كنت أخذت فيها ، وأقبلت حتى نزلت القيروان ، والحمد لله الذي حفظ لأمير المؤمنين أموره وسلم جنوده ، فلما قرأ عبد الملك هذا الكتاب كان عنده الزهري فقال له : ما تظن بأولئك الذين صعدوا السور كيف استطيروا من السور وكيف كان حالهم ، قال الزهري : خبلوا يا أمير المؤمنين فاستطيروا لأن بتلك المدينة جناً قد وكلوا بها ، قال : فمن أولئك الذين كانوا يخرجون من تلك الحباب ويطيرون ؟ قال : أولئك الجن الذين حبسهم سليمان بن داود ، عليه السلام ، في البحار .

وبعد أن ذكر ياقوت هذه القصة الخرافية الطويلة قال : قصة بعيدة من الصحة لمفارقتها العادة ، وأنا بريء من عهدتها ، إنما أكتب ما وجدته في الكتب المشهورة التي دونها العقلاء ... (٥ : ٨٠ — ٨٢)

من هذه النماذج التي أوردناها نجد مصادر المعرفة عند ياقوت تكاد تنحصر في خمسة مصادر :

١ — النقل من الكتب مع الإشارة إلى مواضع النقل .

٢ — ما يتواتر من الأخبار وما يرد في الأشعار .

٣ — سؤال من طرق البلاد من الناس .

٤ — سؤال أهل المعرفة .

٥ — الزيارة الشخصية والمعرفة المباشرة .

كما نجد الجغرافي الكبير يقف من الروايات التي ينقلها من الكتب أو الناس أحد هذه المواقف :

١ — النقل دون إبداء رأي فيما نقل ، والاكتفاء بقوله : هذا ما حكاه فلان .

٢ — التوقف عند قوله (الله أعلم) دون زيادة .

٣ — قوله والله أعلم بصحته وسقمه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٤ – التبرؤ من هذا خبر وجدته كما رأيته .

٥ – وهذا خبر نقلته على ما وجدته ، والله المستعان عليه .

٦ – وهذه الحكاية كما ترى خارقة للعادات بعيدة عن المعهودات ، ولو لم أجدها في كتب العلماء لما ذكرتها ، وجميع أخبار الأمم القديمة مثله .

٧ – وهذا خبر عجاب بعيد عن الصحة في العقل .

٨ – هكذا وجدت الخبر كما تراه مسنداً ، وفيه طول ، وهو أبعد من السماء عن الحق ، والله المستعان .

٩ – ولكن الناس إذا رأوا بناء عجيباً جهلوا بانيه أضافوه إلى سليمان وإلى الجن .

١٠ – قلت : وهذا من هذيان العجم .

١١ – فلذلك ذكرت وإن كانت بالخرافة أشبه .

١٢ – وأنا من قبل أن آخذ في ذكرها أبرأ إلى الناظر في كتابي هذا مما أحكيه من أمرها ...

١٣ – نقلته كما وجدته ، ولكن تركه أولى .

١٤ – وأنا بريء من العهدة .

١٥ – ذكرته كما وجدته ، لا أضمن صحته ، فإن كان صحيحاً فقد ظفرت بالغرض وإن كان كذباً فتعرف ما يقوله الناس .

١٦ – قلت : هذا هو الكذب الصراح .

١٧ – ولو لم أر هذا الخبر في مواضع من كتب العلماء ما استجزت كتابته .

١٨ – هذا خبر شبيه بالخرافة ، وهو مستفيض ، ووجوده في كتب الناس كثير والله أعلم بصحته ، وإنما كتبت ما وجدت .

ولكن

هل كان ياقوت في معجمه كلّه عالماً ينكر الأسطورة ويستبعد الخرافة ، ويدعو إلى المعقول ؟ لو كان كذلك لجهلنا حق العصر ولكنّا نحن بعيدين عن العلم ، وليس يجوز في المنطق أن نحكم على إنسان ونحن نجرده من بيئته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعصره ، ولا على حادثة ، ونحن نفصلها عن ظروفها وما يحيط بها ، فياقوت ابن عصره ونتاج طبيعته وخلاصة بيئته ، ولم يكن العلم في ذلك العصر هو السائد ـ وما يزال كذلك في هذا العصر ـ بل كانت هنالك موروثات كثيرة من العادات والتقاليد ، وروايات اختلط فيها الواقع بالخيال ومن الصعب أن يتخلص الإنسان منها مهما كان حظه من الوعي والنقد وكذلك كان ياقوت ، وقع في بعض ما أنكر أن يقع فيه ، وسقط في بعض ما تبرأ منه ، وذلك في مواضع ليست كثيرة على كل حال ، منها ما ينقله عن الكتب ، ثم لا ينكره بل قد يوافق عليه ، ومنها ما يكتبه هو نفسه .

ولكن هذه المواقع ليست كثيرة في معجم البلدان ، وهي لا تعدو أحد أمرين: إما أحاديث منقولة يقف عندها احتراماً للعقيدة ، وأدباً ، وإما قصة مشهورة يرددها الناس حتى تكاد تكون لإلحاحها على أذهانهم أمراً لا يحتاج إلى دليل .

وهنالك مسألة أخرى كانت نقطة ضعف عند ياقوت ، هي موقفه من بعض الأقوام والشعوب ، وكدت أقول المدن ، كالبربر ، وسكّان افريقيا ، وأهل صقلية ، فأنت تحس في حملته عليهم وشدته في هذه الحملة أنه يظلمهم ، وإن شيئاً من الإحساس بكبرياء العرق أو اللون قد تدخل في رأيه فسجله في كتابه ، فأنت لا تستطيع الثقة بما يكتب والاطمئنان إلى ما ينقل .

والمواضع التي يسقط فيها ياقوت تقع في الغالب حين ينقل أخبار غيره ثم لا ينقدها ، ويتراوح السقوط بين عدم إنكار اللامعقول ، وبين إنكار العقل وتعطيل التفكير ، والحق أنه قلّ أن يقع في الهوة الثانية ، ويكاد ينحصر سقوطه في مواضع معدودة أشهرها في كتابه :

في المجلد الأول في الصفحات : ١٤٣ ، ٣٤٢ ، ٣٦٩ ، ٣٧٨ ، ٤٨٢ ، ٤٩٦ ، ٥٢٧ .

في المجلد الثاني في الصفحات : ١٣ ، ١٥١ ، ٤٧٦ ، ٥٠٠ .

في المجلد الرابع في الصفحات : ١٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونلاحظ على العموم أن ياقوتاً يقف عند الأحاديث والأخبار الدينية ، وقلّ أن يعترض على مثل هذه الأحاديث والأخبار ، وإن كانت الأولى لم تثبت صحتها والأخرى داخلتها الأساطير ، ولعل ذلك أن يكون راجعاً إلى تقواه وورعه .

وهذه نماذج اخترناها مما يمكن أن يؤخذ على ياقوت وهي مآخذ يسيرة في جنب محاسنه الكثيرة :

ارجان (١ : ١٤٣)

وحدث أحمد بن محمد الفقيه ، قال : حدثني أحمد الأصفهاني قال : بأرجان كهف في جبل ينبع منه ماء بالعرق من حجارة ، فيكون منه هذا الأبيض الجيد ، وعلى هذا الكهف باب من حديد وحفظة ، ويغلق ويختم بخاتم السلطان إلى يوم من السنة يفتح فيه ، ويجتمع القاضي وشيوخ البلد حتى يفتح بحضرتهم ، ويدخل إليه رجل ثقة عريان فيجمع ما قد اجتمع من المومیا ويجعله في قارورة ، فيصير ذلك مقدار مائة مثقال أو دونها ، ثم يخرج ويختم الباب بعد قفله إلى قابل ، ويوجه بما اجتمع منه إلى السلطان وخاصيته لكل صدع أو كسر في العظم ، يسقى الإنسان الذي قد انكسر شيء من عظامه مثل العدسة ، فينزل أول ما يشربه إلى الكسر فيجبره ويصلحه لوقته ، وقد ذكر البشاري والاصطخري : ان هذا الكهف بكورة دار ابجرد .

ذكر البحار (١ : ٣٤٢)

وأما ماء البحر فذكر مقاتل أنه فضلة ماء السماء المنهمر منها في الطوفان ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ « فلما بلعت الأرض ماءها بقي ماء السماء على وجهها وهو ماء البحر ، قال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإنما كان ملحاً لأنه ماء سخط كذا نزل ، ولم يذكر أحد من المفسرين في هذا شيئاً ، وهو قول حسن يتقبله القلب ، وكذا قيل في الماء الذي تبديه الأرض إلينا وهو نبع من ماء السماء أيضاً واحتج بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾.

بربر (١ : ٣٦٩)

وقال أحمد بن يحيى بن جابر : حدثني بكر بن الهيثم ، قال سألت عبد الله ابن صالح عن البربر فقال : ... والبربر أجفى خلق الله وأكثرهم طيشاً ، وأسرعهم إلى الفتنة ، وأطوعهم لداعية الضلالة ، وأصغاهم لنمق الجهالة ، ولم تخل جبالهم من الفتن وسفك الدماء ، ولهم أحوال عجيبة واصطلاحات غريبة ، وقد حسن لهم الشيطان الغوايات ، وزين لهم الضلالات ، حتى صارت طباعهم إلى الباطل مائلة ، وغرائزهم في ضد الحق جائلة ، فكم من ادعى فيهم النبوة فقبلوا ، وكم زاعم فيهم أنه المهدي الموعود به فأجابوا داعيه ولمذهبه انتحلوا ، وكم استباحوا الفروج بغير حق ، ونهبوا الأموال واستباحوا الرجال ، لا بشجاعة فيهم معروفة ، ولكن بكثرة العدد وتواتر المدد .

وسكت ياقوت عن كل ذلك ، أيمكن أن يكون من دعاة العنصرية ؟

بكرم : في صقلية (١ : ٤٨٣)

والذي يحملهم على ذلك قلة مروءتهم وعدم فطنتهم ، وكثرة أكلهم البصل ، فذاك الذي أفسد أدمغتهم وقلّل حِسّهم ، وذكر يوسف بن إبراهيم في كتاب أخبار الأطباء قال : بعض الأطباء وقد قال له رجل إني إذا أكلت البصل لا أحس بملوحة الماء ، فقال : إن خاصية البصل إفساد الدماغ ، فإذا فسد الدماغ فسدت الحواس ، فالبصل إنما يقلل حسّك لملوحة الماء لما أفسد من الدماغ ، قال : ولهذا لا ترى في صقلية عالماً ولا عاقلاً بالحقيقة بفن من العلوم ، ولا ذا مروءة ودين ، بل الغالب عليهم الرقاعة والضعة وقلة العقل والدين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التبر (٢ : ١٣) إلى حدود غانه

قال ابن الفقيـــه : والذهب ينبت في رمل هذه البلاد كما ينبت الجزر وانه يقطف عند بزوغ الشمس .

الجلسد : (٢ : ١٥١)

اسم صنم كان بحضرموت ، ولم أجدْ ذكره في كتاب الأصنام لأبي المنذر هشام بن محمد الكلبي ، ولكني قرأت في كتاب أبي أحمد الحسن بن عبد الله العسكري : أخبرنا ابن دريد قال : أخبرني عمي الحسين بن دريد قال : أخبرني حاتم بن قبيصة المهلبي ، عن هشام بن الكلبي ، عن أبي مسكين قال : كان بحضرموت صنم يسمى الجلسد ، تعبده كندة وحضرموت ، وكانت سدنته بني شكامة بن شيب بن اسكون بن اشرس بن ثور بن مرتع وهو كندة ثم أهل بيت منهم يقال لهم بنو علاق ، وكان الذي يسدنه منهم يسمى الأخزر ابن ثابت . وكان للجلسد حِمى ترعاه سوامه وغنمه . وكانت حوافي الغنم إذا رعت حمى الجلسد حرمت على أربابها وكانوا يكلمون منه ، وكان كجثة الرجل العظيم ، وهو من صخرة بيضاء لها كرأس أسود وإذا تأمله الناظر رأى فيه كصورة وجه الإنسان ، قال الأخزر : فإني ليوماً عند الجلسد وقد ذبح له رجل من بني الأمرى بن مهرة ذبحاً ، إذ سمعنا فيه كهمهمة الرعد ، فأصغينا فإذا قائل يقول : شمار أهل عدم . انه قضاء حتم ، إن بطش سهم فقد فاز سهم ، فقلنا ربنا وضاح وضاح ، فأعاد الصوت وهو يقول : ناء نجم العراق ، يا أخزر بن علاق .

دير برصوما (٢ : ٥٠٠)

هو الدير الذي ينادى له بطلب نذره في نواحي الشام والجزيرة وديار بكر وبلاد الروم ، وهو قرب ملطية على رأس جبل يشبه القلعة ، وعنده متنزه ، وفيه رهبان كثيرة يؤدون في كل عام لملك الروم وللمسلمين من نذوره عشرة آلاف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دينار على ما بلغني . حدثني العفيف مرجا الواسطي التاجر قال : اجتزت به قاصداً إلى بلاد الروم ، فلما قربت منه أخبرت بفضله وكثرة ما ينذر له ، وإن الذين ينذرون له قلَّ ما يخالف مطلوبهم ، وأن برصوما الذي فيه أحد الحواريين ، فألقى الله على لساني أن قلت : إن هذا القماش الذي معي مشتراه بخمسة آلاف درهم ، فإن بعته بسبعة آلاف درهم ، فلبرصوما من خالص مالي خمسون درهماً ، فدخلت قلطية وبعته بسبعة آلاف درهم سواء . فعجبت ، فلما رجعت سلَّمت إلى رهبانه خمسين درهماً ، وسألتهم عن الحواري الذي فيه ، فزعموا أنه مسجَّى فيـــه على السرير ، وهو ظاهر لهم يرونه ، وإن أظافره تطول في كل عام ، وأنهم يقلمونها بالمقص ، ويحملونها إلى صاحب الروم مع ما له عليهم من القطيعة ، والله أعلم بصحته فإن صح فلا شيء أعجب منه .

ألا ترى ياقوتاً يميل إلى التصديق .

طبرستان (٤ : ١٦)

وقال علي بن زين الطبري كاتب المازيار وكان حكيماً فاضلاً ، له تصانيف في الأدب والطب والحكمة ، قال : كان في طبرستان طائر يسمونه كـكم ، يظهر في أيام الربيع فإذا ظهر تبعه جنس من العصافير موشاة الريش ، فيخدمه كلَّ يوم واحد منها نهاره أجمع ، يجيئه بالغذاء ويزقه به ، فإذا كان في آخر النهار وثب على ذلك العصفور فأكله ، حتى إذا أصبح وصاح جاءه آخر من تلك العصافير ، فكان معه على ما ذكرنا ، فإذا أمسى أكله ، فلا ال على هذا مدة أيام الربيع ، فإذا زال الربيع فقد هو وسائر أشكاله ، وكذلك أيضاً ذلك الجنس من العصافير ، فلا يرى شيء من الجميع إلى قابل في ذلك الوقت ، وهو طائر في قدر الفاختة ، وذنبه مثل ذنب البيغاء ، وفي منسره تعقيف ، هكذا وجدته وحققته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه بعض الجوانب السلبية في بناء العقل العلمي عند ياقوت ، تغتفرها تلك الجوانب الإيجابية الكثيرة الرائعة ، ولا شك ان لبيئة ياقوت وعصره أثرهما الكبير في هذا التكوين المتفاوت ، وهكذا نجد حظ التفكير السليم الناضج أغلب على ياقوت من حظ التهافت والسقوط .

ولا نستطيع أن ننهي بحثنا عن التفكير العلمي عند ياقوت دون أن نشير إلى ما كتبه المستشرق الروسي الكبير كراتشكوفسكي عن ياقوت ، فقد أعطاه بعض حقه في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) الذي نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧ وهذا تلخيص يسير لبعض ما كتب عنه هذا المستشرق (ص ٢٧ / ٢٧) .

بين عامي ١٨٦٦ — ١٨٧٦ نشر فستنفلد Wistenfeld المعجم الجغرافي لياقوت في ستة أجزاء وهو مرجع جغرافي يتجه إليه البحاثة إلى أيامنا هذه ، ونموذج لما يجب أن يكون عليه أدب النقل (Compitation) في أدق معانيه .

وفي (ص ٣٣٥) :

وأهمية معجم ياقوت تتجاوز بكثير حدود الأهداف الجغرافية الضيقة ، فهو يمثل آخر انعكاس لتلك الوحدة المثالية للعالم الإسلامي ، تحت حكم العباسيين ، رغماً من أنها كانت في مواقع الأحوال أثراً من آثار الماضي . وهو أوسع وأهم ، بل وأكاد أقول أفضل مصنف من نوعه لمؤلف عربي للعصور الوسطى (١) .

ولتكوين فكرة عن حجمه يكفي أن نذكر أن المتن المطبوع يضم ٣٨٩٤ صفحة وهو جماع للجغرافية في صورها الفلكية والوصفية واللغوية وللرحلات أيضاً ، كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية إلى جانب الدين والحضارة والانتولوجيا (علم الأجناس والفصائل البشرية) والأدب الشعبي ، والأدب الفني ،

(١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، المقدمة : ٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وذلك في القرون الستة الأولى للهجرة ، ويقرب عدد الشواهد الشعرية وحدها فيه وذلك بين صغيرها وكبيرها من الـ ٥٠٠٠ استطاع الناشر أن يحقق منها ما يقرب من ٣٠٠٠ من المصادر الأخرى .

وصف سنكوفسكي ، عندما نشر ترجمته لرواية ياقوت عن تفليس (١٨٣٨) بأنه « كاتب مدقّق مجتهد ندين له بحفظ آثار قيّمة في تاريخ وجغرافيا العصور الوسطى . »

وفي (ص ٣٣٧) : ولعله لم يتمتع جغرافي عربي بعدد من الدراسات مثل الذي أفرد لياقوت .

وفي (ص ٣٣٧) : وبالنسبة لموضوعنا فإن سيرة حياة ياقوت ليست بأقل أهمية من مصنفه ، وهي برهان آخر على سعة الأفق والعبقرية التي شادت بمصنفاتها الصرح الهائل للحضارة العربية .

وفي (ص ٣٣٩) : وأمام الظروف القاسية التي اكتنفت الأعوام الأخيرة من حياته يجب أن نعجب لا للعدد الضئيل من الأخطاء الذي وجد الطريق إلى مصنفاته ، بل لعدد هذه المصنفات الكبير ، وقيمتها العالية التي لا يتطرق إليها الشك . ويحتل المكانة الأولى بينهـــا من وجهة نظرنا دون منازع معجمه الجغرافي الكبير .

وفي (ص ٣٤٤) : ولا يزال معجمه (معجم البلدان) إلى أيامنا هذه يخدم غرضه ويلعب دوره كمرجع موثوق به ، مما يقف برهاناً ساطعاً على أهميته التي لا تضارع .

خاتمة :

هذا هو ياقوت العالم الجغرافي والأديب الكبير .

١ — له ثلاثة معاجم تدل على تبحره وموسوعيته : معجم البلدان — معجم الأدباء — معجم الشعراء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٢ — يعترف بفضل من سبقه من العلماء ويردّ إليهم ما أخذ منهم .

٣ — ينكر أن يكون للعلم نهاية ، فقد ترك الأول للآخر كثيراً من كثير .

٤ — يحكم عقله فيما ينقل ، ويحكم تجربته فيما يسمع ، وقل أن يخونه عقله أو تعثر به تجربته .

وعند باب من أبواب حلب وفي خان من خاناتها تختلط فيه أصوات البهائم وأصوات الناس ، فلا تدري بأيها هو أكثر أنساً ، وعلى أرض هذا الخان الحجرية ، وفوق حصيرة من القش قديمة قصيرة ، فاضت روح هذا العالم المحقق وقد انتشرت حواليه مخطوطاته الكبيرة ، وكتبه الجليلة ، وهو يهمس في آذاننا بوصيته الأخيرة :

« ولي على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه ألا يضيع نصبي ونصب نفسي له وتعبي ، بتبديد ما جمعت ، وتشتيت ما لفقت ، وتفريق ملتئم محاسنه ، ونفي كل علق نفيس عن معادنه ومكامنه باقتضابه واختصاره ، وتعطيل جيده من حليه وأنواره ...

فإن أجبتني فقد بررتني جعلك الله من الأبرار ، وإن خالفتني فقد عققتني ، والله حسيبك في عقبى الدار . »

عبد المعين الملوحي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net